البشـــير الإبراهيمـــي
(١٣٠٦-١٣٨٥هـ=١٨٨٩-١٩٦٥م)

التحرير بالعلم

obeikandl.com

في عبارات وقحة، وفي افتتاح مهرجانات الحرية عام ١٩٣٠م، التي أقامها الحاكم الفرنسي بمناسبة مرور مائة عام على احتلالهم للجزائر سنة ١٨٣٠م. وقف يقول في قسنطينة: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات لبلوغنا مائة عام في الجزائر فحسب، فقد أقام الرومان من قبلنا ثلاثمائة عام وخرجوا كارهين، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو: تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار».

هذا القول المغرور الذي جاء على لسان الجنرال الفرنسي المحموم،جانبه الصواب، فالإسلام أقوى وأبقى من أن تشيع جنازته في أي مكان يصل إليه نوره، مادامت هناك صدور وقلوب شملها هذا الضياء.

وقد أكدت حرب تحرير الجزائر هذا المعنى، فقد كان للإسلام الدور الأكبر في إلهاب الحمية الباسلة لجنود معارك التحرير وعدادهم لهذا الجهاد الذي استأصل شأفة الفرنسيين بالجزائر.

أذكى روح الجهاد في نفوس الجزائريين علماء الدين الإسلامي المستنيرين الذين تحدوا الظلم في بسالة رائعة، مستمدين من عقيدتهم الإسلامية وتاريخهم الممتد عبر القرون وقوداً لا تهدأ ناره ولا يخمد ضرامة، فهم قادة المشاعل التي لا تخبوا أبدا.

لقد أقلق هؤلاء العلماء الاحتلال بما أثاروا من همم وأحيوا من حمية، وبنوا من مدارس، وأنشؤوا من صحف مستمدين من كتاب الله غذاءهم وضياءهم الهادي لاسترداد حقوقهم المغتصبة وتحرير أرضهم.

كبير العلماء:

من هؤلاء العلماء «محمد البشير الإبراهيمي» كبير علماء الجزائر وشيخ المجاهدين بها، والذي وُلِدَ في عام ١٨٨٩م الموفق ١٣٠٦هـ. من أسرة كريمة ترجع بنسبها إلى الأدارسة العلويين من أمراء المغرب في أزهى عصوره، وكان عمه «الشيخ محمد المكي الإبراهيمي» العالم في علوم النحو والصرف واللغة والفقه، وقد تعهده هذا العالم ووضع له نظامًا تعليميًا محددًا، فقد حفظ القرآن الكريم وألفية ابن مالك،

وألفية ابن معطٍ، وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر، وهو في السابعة من العمر، إضافة إلى معظم رسائل بلغاء الأندلس، ودواوين المتنبي والبحتري والطائي وغيرهم.

وقد هيأه هذا المحصول الضخم من الثقافة العلمية المتنوعة للتدريس العلمي لزملائه عقب وفاة عمه، وهو في الرابعة عشرة من عمره.

وعندما وصل إلى سن العشرين ورغبة في المزيد من العلم شد الرحال إلى مراكز الثقافة الإسلامية في مصر والمدينة. وصل إلى القاهرة فأقام بها ثلاثة أشهر، حيث حضر الدروس بالأزهر ولاقى كبار علمائه، إذ استمع إلى «الشيخ سليم البشري»، وحضر دروس «الشيخ بخيت المطيعي» في الحديث بالرواق العباسي، ودروس «الشيخ يوسف الدجوي» في البلاغة، ودروس «الشيخ السمالوطي» بالمسجد الحسيني، وحلقة «الشيخ سعيد الموجي» بجامع الفكهاني، كما زار دار الدعوة والإرشاد حيث قابل «الشيخ محمد رشيد رضا».

ومن القاهرة سافر إلى المدينة ليستأنف العلم في حلقات الحرم النبوي سنة ١٩١١م. وهناك التقى بعالمين كبيرين هما: «الشيخ عبدالعزيز الوزير التونسي»، و«الشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي».

أخذ عن الأول الموطأ ولزم دروسه في الفقه المالكي وشرح التوضيح لابن هشام، وعن الثاني شرح صحيح مسلم.

نقطة تحول:

وكان مقام «البشير» في المدينة المنورة نقطة تحول خطير في اتجاهه العلمي والسياسي فقد فاض عليه المكان بإشراقاته الروحية الفياضة، فأقبل على المكتبات المليئة بكنوز العلم في دار الهجرة، فأخذ ينهل منها ما استطاع من كتب الفقه واللغة، والأدب مثل الكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، كما حفظ كثيراً من دواوين الشعراء، فضم إلى تضلعه الفقهي تضلعاً أدبياً أمده بالطلاقة والفصاحة، حيث

تصدر حلقات التدريس كعهده بالجزائر.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى اضطر إلى السفر إلى دمشق ليواصل التدريس بالمسجد الأموي مع «الشيخ بدرالدين الحسنى» و«الشيخ جمال الدين القاسمي» و«الشيخ الخضر حسين» فأثمرت تلك الدروس الثمينة، التي أعادت بهاء الشريعة وجمال العربية في ديار الشام.

وتغير اتجاهه السياسي في المدينة المنورة، عندما التقى فيها بزعيم الإصلاح الديني بالجزائر «عبدالحميد بن باديس» وامتد الحديث بينهما إلى نكبة الجزائر بالاستعمار، وأخذا يضعان الخطط لبعث الأمة الإسلامية بـ جزائر، حتى ينهض الجزائريون ويقاومون الاحتلال الفرنسي بإعاز من الدين وعملاً بقواعده.

فقد اتفق الاثنان على أن البعث الإسلامي بالجزائر لن يتم إلا بتربية جيل مؤمن يعتنق مبادئ الإسلام عن حمية وإخلاص، وأن كل معركة سياسية تسبق هذه التربية الإسلامية لن تحقق الثمار المرجوة منها.

لذلك عكفا على تدارس الوسائل التي يمكن أن تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة، وأثناء هذه اللقاءات التي جرت خلال سنة ١٩١٣م، تم وضع الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين،التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م.

ندوات ودروس:

وبعد عودته إلى وهران في بلدة الجزائر أخذ البشير يعقد الندوات العلمية للطلاب، وأعد الدروس الدينية الموسمية لكافة المسلمين من صغير وكبير، وبعد أن تزايد عدد الحاضرين، انتقل إلى الدروس النظامية ذات المنهج المحدد، وبعث بطلابه إلى البلاد المجاورة ينشرون رسالته ويهيئون النفوس للقائه في أيام الجمع،حيث كان يزور القرى والمدن ليخطب الناس أيام الجمع.

وكان لهذه الخطب أثر كبير في إحياء جذوة الدين وإشعالها في النفوس المتعطشة

لمن يعيد للإسلام نضارته وبهائه، ويذكرهم بأمجادهم، ويحثهم على الجهاد لرفع راية دينهم العظيم.

هذا النشاط أزعج سلطات الاحتلال،خاصة وأنه توازى مع نشاط ابن باديس في قسنطينة، فعملوا على تعويقه بكافة الطرق. ولكن البشير لم يأبه بما يفعلوه، ظل يلتقي بطلاب العلم ويحثهم على الثورة والتمسك بقيم ومبادئ الإسلام، متعاوناً مع ابن باديس، وأثمرت دعوتها وجهادهما ما بين سنتي ١٩٢٠-١٩٣٠ عن تأسيس جمعية العلماء الجزائريين.

وقد ظن المستعمرون أن جماعة علماء الجزائر ليست إلا نمطا من مشيخة الطرق الصوفية، أنشأها العلماء لإقامة حفلات الذكر وتلاوة الأدعية والطواف بالأضرحة، وجمع الزكاة. كانوا يعتقدون أن طول فترة الاحتلال، قد قضى على كل معنى كريم من معاني الإسلام وأن جذوة الوطنية قد خبت.

وجاءت الأحداث لتثبت لهم خطأ هذا الاعتقاد. ففي العام الذي خرجت فيه جمعية العلماء الجزائريين إلى الوجود، نظم الفرنسيون مهرجاناً للاحتفال بمرور مائة عام على احتلال الجزائر، ورغم إحضارهم أعلام الفن الباريسي رجالا ونساء، ممن توهم المحتلون أنهم سيأخذون على الجزائريين أسماعهم وأبصارهم بما يعرضون من فنون، فلم تكد تحين أيام الاحتفال حتى قاطعها الجزائريون ووجد الفرنسيون أنفسهم وكأنهم يحتفلون بأنفسهم. وعرف الفرنسيون أن الجمعية التي أنشئت منذ أيام قد تركت هذا الدوي الرنان.

محاربة المحتلين:

وكان «ابن باديس» و«البشير» من الحصافة بحيث أبدا شيئا وأضمرا أشياء، فقد اكتفيا في نصوص اللائحة الرسمية بإعلان الدعوة إلى الإصلاح الديني والتعليم، بينما تواصى المجتمعون في أول انعقاد رسمي لجماعة العلماء بمحاربة المحتلين،وتقويض دعائم السيطرة الفرنسية على البلاد، وبث الروح الإسلامية

عقيدة ولغة وتشريعاً.

وقد اختص «ابن باديس» بالإشراف على مقاطعة قسنطينة، والبشير بالإشراف على مقاطعة وهران، و«الشيخ الطيب العقبي» على مقاطعة.. الجزائر. وأثمرت هذه الحركة الجادة النشطة، فسرعان ما أقيمت عشرات المدارس والمساجد، وطُبعت الكتب الإسلامية القديمة لتقدم الزاد الحي للنشء الجديد.

وفي هذه المعركة الجهادية بذل «الشيخ البشير» مجهودا كبيرا، حيث كان يلقي عشرة دروس في اليوم الواحد، يبتدئه بدرس الحديث بعد صلاة الصبح، ويختتمها بدرس التفسير بين المغرب والعشاء. ثم ينصرف بعد ذلك ليلقي المحاضرات في التاريخ الإسلامي في النوادي والمنتديات. وفي أيام الجمع كان يتجول بالقرى يُنشط العزائم ويبعث الهمم.

وقد أثمر هذا النشاط بناء ٤٠٠ مدرسة إسلامية، تضم مئات الآلاف من البنات والبنين،وإنشاء أكثر من ٢٠٠ مسجد للصلوات والمحاضرات. مما أفزع المحتلين فاعتقلوا البشير ونفوه إلى صحراء وهران.

وصل الليل بالنهار:

وعندما توفى «ابن باديس»،اجتمعت جمعية العلماء يوم وفاته وانتخبت بالإجماع «الشيخ البشير» لرئاسة الجمعية من بعده. وقد أُبلغ بهذا الاختيار في منفاه بصحراء وهران، فتحمل التبعة الكبيرة بعزيمة شماء، وشجع تلاميذه على الذهاب إلى الأماكن النائية لمجاهدة الاحتلال.

وبعد أن انتهت فترة المنفى واصل نشاطه: حيث راح يعظ ويرشد ويحاضر، وينشئ المدارس ويضع المناهج، ويرأس تحرير جريدة البصائر، ويدير جمعية العلماء، ويقوم بالصلح بين الجماعات المتخاصمة في ربوع البلاد، حتى كان كثيرا ما يصل الليل بالنهار دون نوم.

وخطا المجاهد الكبير خطوة أكبر على طريق النضال، حيث عمل على إنشاء

المدارس الثانوية،فبدأ بإنشاء معهد ديني ثانوي كبير بقسنطينة، وأطلق عليه اسم «ابن باديس» تخليدا لذكرى الرائد الأول في ميدان الكفاح. وكان تلاميذ السنة الأولى به أكثر من ألف طالب.

ومن تلاميذ هذا المعهد كان دعاة الحركة التحريرية بالجزائر، حيث تقدمت الوفود المؤمنة إلى معركة الاستقلال بحماسة ورغبة في الشهادة قبل الانتصار.

حرية وانتصار:

وهكذا أثمر جهاد علماء الدين في الجزائر حرية وانتصاراً، فقد كانت التربية الدينية في مئات المدارس والمساجد والمعاهد التي عمل على إقامتها البشير ورفاقه، بمثابة المعسكرات الحربية المؤمنة التي أعدت الجنود ودفعت بهم إلى ساحة الحرية، فاستأصلوا الاحتلال الفرنسي في معارك رهيبة، صدق القوم فيها صدق المناضلين، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، بل تمت كلمة الله باستقلالهم الباهر. كما يقول الدكتور محمد رجب البيومي- وانتصروا بمبادئ الإسلام التي عبثتهم لهذا الجهاد الطويل. الذي حطم غرور الاحتلال الفرنسي وقضى على أوهامه. فقد جهلت فرنسا،أو تجاهلت أن أبناء الجزائر كغيرهم من أبناء العروبة، قد انحدروا من أصلاب قوم كرام يأنفون الذل، ولا يصبرون على الضيم، بل كانوا يؤثرون الموت في عزة وكرامة على الحياة في ذلة ومهانة. وتناسى هؤلاء الفرنسيون أنه لا بقاء للاستعمار في أمة مسلمة؛ لأن مبادئ هذا الدين وتعاليمه وتوجيهاته خير دعامة للحرية، وأقوى حافز إلى الثورة ضد الذل والتعسف.

إن الدين يأمرنا بالاتحاد والتعاون والتآزر، ويفرض علينا القتال والنضال، كلما خيف على حريتنا أن تُسلب، وعلى كرامتنا أن تُهدر، فكيف يمكن أن يكون للاستعمار بقاء مع هذه المبادئ العظيمة التي قررها الدين.

أديب كبير:

يبقى أن تعرف أن «البشير»كان أديبا كبيرا صرفه الجهاد الإسلامي لا عن تأليف

الكتب، وإنما صرفه عن طبع ما كتب وألف، فقد كان يجمع آلاف الجنيهات لينشئ المدارس ويبني المساجد والمعاهد، وشغله الجهاد عن مؤلفاته، فترك كتبه العلمية رهينة مخطوطاته. وكان من بين هذه المؤلفات: بقايا فصح العربية في لهجة الجزائر، النقايات والنفايات، أسرار الضمائر في العربية، التسمية بالمصدر، الاطراد والشذوذ في العربية، قصة كاهنة أوراس، حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام، شُعب الإيمان، مخارج الحروف، الملحمية الرجزية في التاريخ، فتاوى متناثرة وغيرها الكثير. إضافة إلى مجموعة عيون البصائر التي تضم افتتاحيات جريدة البصائر.

تحقق أمل «البشير الإبراهيمي» في التحرير، وعاش حتى رأى الحرية وشمس العربية والإسلام تشرق على الجزائر، حتى توفي في مايو سنة ١٩٦٥م ١٣٨٥هـ.